

إشكالية الصراع الهوياتي في عصر العولمة

The form of identity conflict in the era of globalization

د. تريكي أحمد^{*1}¹ جامعة طاهري محمد - بشار (الجزائر)، ahmed.triki@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2021/12/20

تاريخ القبول: 2021/11/11

تاريخ الاستلام: 2021/07/12

ملخص:

تحتل الهوية قلب الصراع الهادف إلى صياغة تعريف نهائي لها. إلا أنه كلما ازداد الاهتمام بهذا الموضوع ازدادت ضبابيته، مما سهّل استعماله في المجال الإيديولوجي المغرض لذلك نجد أن هذا المفهوم يختلف باختلاف درجة تطور المجتمعات، لأن الأمر يتعلق بدرجة تعقد المجتمع، وبالتالي فهو انعكاس للقيم المعمول بها في المجتمع. لذلك فهناك اتجاهات متناقضة ضمن العولمة، وأن جميع تلك الاتجاهات تؤدي إلى إضعاف الحريات الموجودة سابقاً. وبناء على التصور السابق سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نقدم مقارنة سوسيولوجية لإشكالية الصراع الهوياتي في عصر العولمة. وذلك من منطلق تحديد مفهوم الهوية سوسيولوجياً، بغرض معرفة أين وصل مفهوم الهوية في القرن الحادي والعشرين.

الكلمات المفتاحية: (الهوية - العولمة - الصراع الهوياتي - القرن الحادي والعشرين - السوسيولوجيا)

Abstract:

Identity occupies the heart of the struggle to formulate a final definition. However, the greater the interest in this subject, the more ambiguous it became, which facilitated its use in the ideological field. Therefore, we find that this concept varies according to the degree of development of societies, because it is about the complexity of society, and therefore it is a reflection of the values applied in society. Therefore, there are contradictory trends within globalization, and all these tendencies weaken existing freedoms. Based on the previous conception, we will attempt in this paper to present a sociological approach to the problematic identity struggle in the era of globalization. In order to identify the concept of identity sociology, in order to know where the concept of identity in the twenty-first century.

Key words: (identity - globalization - identity conflict - twenty-first century)

تمثل الهوية في أي مجتمع الإطار الذي يعبر عن وجوده وثوابته بحيث تشكل القاعدة الأساسية لبنائه. وأن تأملنا لهذه القضية يطرح عدة أسئلة تتزاحم عليها الأفكار، خصوصاً مع التباسها في علاقاتها بظاهرة العولمة، كما احتلت مكانة كبيرة في الساحة الثقافية خصوصاً في هذه الألفية. وبالتالي تعددت المقاربات المنهجية والحقول المعرفية بهذا الشأن، ومن ثم أصبح من الصعب الحكم في ظل هذه العلاقة بين المفهومين والوقوف على مدى ثبات مضامين الهوية.

وتعد مسألة الهوية من المواضيع البحثية الحساسة نظراً لطبيعة الرهانات المتعلقة بها. كما يشكل الصراع الهوياتي تهديداً لوحدة المجتمع، خصوصاً لما يتخذ شكلاً ثقافياً وعرقياً. ففي هكذا حال يكون للتربية والثقافة والسياسة دوراً في إيجاد الحلول، والتي تبدأ بالاعتراف بالحقوق الثقافية المشروعة والانفتاح على التعدد الثقافي.

كما أن الارتقاء بمفهوم الهوية إلى المستوى العلمي يشوبه الكثير من الشك لأنه يقودنا إلى الحديث عن المشكلات الإنسانية التي تحدث بسبب الهوية. وأن الحديث عن هذا الموضوع في عصر العولمة يقودنا أيضاً إلى جدل من نوع آخر بين المفهومين، لأن العولمة تسعى بكل ما أوتيت من قوة أن تعيد تنظيم الساحة العالمية بشكل يؤصل ويبسط ويسهل نفوذها وتأثيرها حتى على الأذواق والرغبات.

فنجد أنفسنا عند محاولة تفسير الصراع الهوياتي في عصر العولمة أمام صعوبات منهجية ونظرية. لأن مع صعود العولمة تعالت صيحات المجتمعات المحلية والجماعات الإثنية والقومية مطالبة بحقها وحق ثقافتها بالوجود مهما كانت صغيرة. وهذا يعكس جدلية العلاقة بين المفهومين، وفي نفس الوقت التفكير في هوية تتماشى مع القيم العالمية.

1 - الهوية:

يعد تعريف الهوية صعب لدرجة أن البعض يرى أنه لا يقبل التعريف، وذلك من منطلق أن كل تعريف يعد هوية بحد ذاته. أما كمفهوم فإن للهوية دلالة لغوية وفلسفية ونفسية واجتماعية وثقافية. حيث أن أصلها لاتيني (Sameness (Placeholder أي الشيء نفسه. وتستخدم هذه الكلمة لتعني (Identity) أي مطابقة الشيء لنفسه، وهناك ثلاث أنواع من الهويات وهي: الوطنية أو القومية، الجماعية والفردية.

منذ نشأته ارتبط مفهوم الهوية بالفردية، حيث كان يعني في الأصل إدراك الفرد لذاته نفسياً، إلا أن هذا الارتباط سرعان ما تحول اتجاه الجماعية، لضم الهويات الاجتماعية والثقافية. وبهذا أصبحت الهوية متمثلة في خصائص الأفراد والجماعات في حدود ما يسمح به الاختلاف في نطاق الكل العام. (علي، 2005) ويعرفها ماكس فيبر على أنها إحساس الجماعة بالأصل المشترك، وهي التعبيرات الخارجية الشائعة، مثل الرموز والألحان والعادات وتميز أصحاب هوية ما عن سائر الهويات الأخرى، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها مثل الأساطير والقيم والتراث الثقافي. (راشد، 2001).

ونظراً لقصور التصور الفردي للهوية، مالت المقاربات ناحية ما يسمى الهوية الجماعية وذلك وفق اتجاهين، أولهما تُعرّف الجماعة من خلاله بخصائصها المميزة (الإجابة الإيجابية عن سؤال الهوية). وثانيهما تطرح فيه الجماعة تميزها عن جماعات أخرى. فهذه النظرة المزدوجة قدمت إسهما بلور جوهر وجود الهوية الجماعية من جانبيين، الجانب الأول يتمثل في منح الجماعة شعور "نحن كأفراد" أي جماعة تُعرّف من خلال علاقات التكتل بين أفرادها. والجانب الثاني شعور "نحن كموضوعات"، أي كجماعة تعمل بإزاء جماعات أخرى مختلفة عنها. وبهذا تصبح الهوية ملجأ افتراضي "نعود إليه مرغمين

لتفسير مجموعة من القضايا التي تخصنا بالرغم من عدم وجود هذا الملجأ في الواقع، بل على المستوى الافتراضي". (Lévi-Strauss، 1977).

فكل عملية لبناء هوية متميزة تؤدي شكل مختلف من البناء الاجتماعي أي تحدد حتى شكل المؤسسات الاجتماعية. لذلك تعرف الهوية لغوياً أنها الذات والأصل والانتماء والمرجعية وهي مأخوذة من كلمة (هو) أي جوهر الشيء وحقيقته. (محمد، 2010) أما اصطلاحاً فهي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، أي تلك الصفة الثابتة والذات التي تتبدل ولا تتأثر ولا تسمح لغيرها من الهويات أن تصبح مكانها أو تكون نقيضاً لها. فالهوية تبقى قائمة ما دامت الذات قائمة وعلى قيد الحياة. (محمد، 2010).

إن تعريف هوية الفرد أو الجماعة يستند إلى الدور المنوط بها وليس إلى تعريف مستقل. فنجد أن توران مثلاً يرى أن المجتمعات التقليدية هي التي تنتج الهوية القوية. وتشير مارغريت ميد إلى أن المجتمعات المعاصرة تعرف الهوية من خلال ارتباطها مع ثوابت "متوقعة للمستقبل" بدلاً من البحث عنها في الجذور من خلال النظر إلى الوراء. وبهذه النظرة الأخيرة يفقد مفهوم الهوية صلاحياته. (هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة، إنها أي الهوية كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز عن غيره وتتجدد فاعليتها ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات). (عمار، 1999).

فالهوية هي قبل كل شيء العلاقة المفاهيمية بين الفرد وثقافته. (تيل، 2008). وإذا أخذنا في الاعتبار البعد السياسي فيكاد يكون التحكم في خيوط تناقضات الهوية الممتدة مستحيلاً، لأن كل نظام سياسي حسب انتماءاته يعمل على الحفاظ على استقراره، وذلك بالبحث عن هوية سواء كانت افتراضية أو واقعية تضمن له وحدة الشعب سياسياً، وكذلك القيم المشتركة، حيث يأتي دور الهوية في بعدها القومي وليس كمنظومة فكرية

ونفسية وممارسات سياسية، بل كبناء مادي يتضح من خلال الرموز والعلامات المادية، إن الأمة "تُرفع كراية" لنا كل يوم، ونحن نميز، ونستخدم، ونلتمس الراحة من الرايات، والعملية الوطنية، والرموز القومية الأخرى لوظائفها المألوفة. كذلك يجري استخدام تعبير "نحن" في الصحف اليومية، لتذكرنا على نحو مطرد بأننا جزء من أمة، وأننا مختلفون عن الآخرين. (فلنت، 2002).

إلا أنه في وجه ثبات الهوية وإطلاقتها يقف التغيير وعدم الثبات، لذلك فإن للهوية وجه فردي وآخر جماعي. وتتمثل تناقضات مفهوم الهوية في عدة جوانب فهو من جهة يدل على المشترك والمميز في نفس الوقت، ويشير إلى الفردي والجماعي، الثابت والمتغير، وبالتالي يمكن أن نجازف ونقول إن الهوية تختزل ثنائي الموضوعي والذاتي في الفعل الإنساني.

وبهذا المعنى يمكن القول إن الهوية تشكل وعي الفرد لذاته كذات مستقلة، لكنها في نفس الوقت ترتبط بما يسمى بالانتماء للجماعة. وبالتالي تمتلك الهوية وظيفة التجميع لجوهر غير ثابت، فهي نسق دينامي من التمثيلات والأحاسيس المحورية، التي يستطيع الفاعل الاجتماعي من خلالها سواء كفرد أو جماعة أن يوجه أفعاله وبناء تاريخه.

ومن ثم يتضح لنا أن السوسيوولوجيا ترد تشكل الهوية إلى المؤسسة التي تخضع لها الجماعة إما عند تواجدها في نفس المجال الجغرافي أو أثناء انتظامها اجتماعياً. فالهوية إذا بحثنا عنها فهي موجودة في إطار من الثنائيات المتناقضة، وهي (فردية/جماعية) (داخلية/خارجية) (كينونة/فعل) (دفاع/هجوم) (متمسكة بالجذور/وتذهب نحو الآخر) (اندماج/تهميش) فلا يمكن حصرها في عنصر دون الآخر.

مما سبق يتضح لنا أننا أمام مصطلح صعب الضبط، لأنه من جهة مرن ومن جهة أخرى يتقاطع مع مصطلحات أخرى. وكذلك لأن هذا المصطلح أصبح يحظى بأهمية كبرى

في كل ميادين المعرفة مما أضفى عليه ثراءً وتنوعاً في المعنى، وهذا قد يخلق ارباكاً لدى الباحث.

2 - العولمة:

تعني كلمة عولمة في اللغات الأوروبية المختلفة، سياسة أو سلوك على المستوى العالمي "Globalisation" ويقصد بها من جهة أخرى السياسة الكونية والكوننة وهي متقاربة ومصطلح التدويل "Internationalisation" أي كل ما هو أممي، وهذه المصطلحات تصب في المفهوم الفكري الذي يضي الطابع العالمي أو الدولي أو الكوني على النشاط البشري وقد تختلط الأمور بين (الأنسنة) من الإنسانية وبين (العولمة) من العالمية. (صقر، 1998).

وهناك من يقصد بالعولمة توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله، أي ما يسمى الأمركة.

وإذا كانت العولمة في أصلها اقتصادية قائمة على إزالة الحدود والحواجز أمام حركة التجارة من أجل التنقل الحر للسلع ورأس المال، فإنها تتجاوزهما إلى الحياة الثقافية والاجتماعية بما فيها من أنماط سلوكية ومذاهب فكرية ومواقف نفسية، وهذا كله يصوغ هوية الشعوب والأمم والأفراد. فهذه العولمة التي هي نظام أو نسق ذو أبعاد تعولم الإنسان في كل المجالات حتى خصوصياته القومية والفردية تتحدى مناعته الذاتية على مسمع ومرأى من العالم، حيث تعولم القيم والأخلاق وأنماط العيش وطرق التفكير، والمقصود هو عولمة الهويات.

ثانياً: شكل الهوية في القرن الحادي والعشرين:

بعيداً عن انبثاق أشكال الهوية في نهاية القرن التاسع عشر، والذي ارتبط بالانفجار الحدائي في المجتمعات الغربية في ظل سيطرة النزعات الليبرالية والاقتصادية والسياسية التي كانت تمثل النماذج الأيديولوجية المهيمنة. حيث اجتاحت الأيديولوجية الوطنية إبان

تشكل الدولة الحديثة. وبعيداً عن الأزمة التي أصابت خطاب الحداثة وبالتالي أزمة هوية فرضت إعادة النظر خلال القرن العشرين الذي تميز بحروب طاحنة، وما صاحبها من تغيرات حتى على مستوى العقل الأوروبي، وبرز خطاب سوسولوجي ركز على مظاهر أزمة الحداثة تمهيداً لمرحلة جديدة ما زلنا نعيشها حتى الآن حيث أصبح الإنسان مجرد رقم في الحسابات السياسية والاقتصادية.

وفي مثل هكذا أوضاع ازداد الاهتمام بمصطلحات كالحرية والديمقراطية والمساواة وغيرها مما أفرزته الحداثة، وفي ظل هذه الاهتمامات احتلت الهوية كمفهوم أرضية واسعة. مفهوم يتمتع بقوة جذب بين مختلف التخصصات العلمية.

ومع تطور العلوم الإنسانية والاجتماعية اختف بريق التفسيرات السببية الحتمية للظواهر، وظهرت مقاربات جديدة أكثر مرونة ركزت على الأبعاد الاجتماعية وتداخل العوامل المتعددة. وبفعل هذه التوجهات الجديدة تم إعادة طرح إشكالية الإنسان والهوية. فلم يعد الإنسان مجرد رقم داخل مؤسسة أو فرد داخل قبيلة أو دولة، وإنما أصبحت هذه الهوية موضوع جدل متواصل، خصوصاً مع ادخال البعد الكوني والترويج لقيم كونية دعمها الإعلام، وأدى إلى اختلالات خلقت تناقضات أدت إلى حروب كثيرة من أجل الهوية.

لذلك تتزايد المطالبة في أيامنا هذه بما يسمى "الهوية الثقافية" لأنه يعتقد أنها هي التي تحقق الذات، والكل في حاجة إلى تحقيقها، وذلك سواء على المستوى الفردي حيث يمكن أن يبدل الفرد أو يوسع أو يطور عضويته، أو على المستوى الاجتماعي حيث تعرف الجماعة نفسها داخلياً أو خارجياً. لأن وكما هو واضح فإن هناك أنماط من الاستهلاك أخذت في التأثير على الخصوصية الثقافية.

ثالثاً: العولمة والهوية:

يثير الحديث عن العولمة والهوية أسئلة أكثر من تقديم أجوبة، لأن كما سبق ذكره ما زال المصطلحان فيهما غموض. ولأننا نعيش عصر انهيار الحدود بين الدول، عصر الشركات عابرة القارات، عصر تطور وسائل الاتصال، عصر اللاحواجز بين الدول، عصر أصبح فيه التبادل التجاري والعلمي والمعرفي سهلاً. أصبحت السيادة لثقافة الدول العظمى على الدول النامية، وبالتالي هيمنة نمط الحياة الغربية على الشعوب الأقل نمواً، تكدست الثروات عند الأقلية وفقر الأغلبية.

فهذه العلاقة المتشابكة بين الهوية والعولمة قد تغوص بنا في أعماق المجتمعات البشرية خصوصاً مع التحولات السريعة التي يشهدها العالم الذي فرض عودة الهوية كمطلب اجتماعي في معظم المجتمعات، مما قد يفرض التفكير في عالم ما بعد العولمة حيث يكون للهوية الدور المحوري في تشكيله، حيث تفتتح أبواب عديدة للحوار مع شعوب العالم. ولعل في ظل التوجه إلى العالمية ينشأ توجهاً جديداً نحو تحديد الهوية، خصوصاً وأنه كما نعلم أنها (العولمة) موجودة في كل مكان، ابتداءً من الشخص وصولاً إلى المجتمع، وبالتالي هناك هويات تثبت وأخرى تختفي باختفاء دول معينة.

إلا أن هذا الوضع لن يستمر لأن هناك مقاومة تبديها الهويات وقد تكون لها الكلمة الأولى في هذا القرن في تحريك الأحداث السياسية. لذلك تسعى العولمة إلى تهميش الهوية باعتبارها قوة يمكن أن تقف في وجهها لأنها تتسم بالرسوخ لدى الشعوب، فلا مجال لتجاوزها أو محوها. إلا أنها يجب أن تنتج آليات البقاء من حيث التوفيق بين مقتضيات السيادة الوطنية ومتطلبات العولمة.

وقد عبر محمد عابد الجابري عن العلاقة بين العولمة والهوية باعتبارها علاقة إشكالية، لأنه لا يمكن وضع حدود بين العولمة الاقتصادية والثقافية... إلخ. ويوجد لمسألة الهوية إطاراً محدداً لا تتعداه. (الجابري م،، 1999).

وفي مقابل الاتجاه العولمي الذي يدعو إلى الانتماء إلى عالم الإنسان الحر، برز في السنوات الأخيرة إلى الواجهة الشعور بالحس القومي الذي أنعشته الأزمات السياسية والاقتصادية وحتى الأمنية.

فالعلاقة بين الهوية والعولمة -إذن- علاقة معقدة وصعبة، وتشهد جدلاً عميقاً في وقتنا الحالي. بحيث يدور هذا الجدل حول إمكانية عمل العولمة على إزالة الهوية القومية وتهميش الثقافات الوطنية. وتفرض هويات جديدة وخلق ثقافة إنسانية واحدة. وفي هذا الصدد يشير الطيب التيزيني إلى العولمة بأنها: "نظام اقتصادي سياسي اجتماعي وثقافي يسعى إلى ابتلاع الأشياء والبشر في سبيل تمثيلهم وإخراجهم سلعاً". (التيزيني، 2001). وبالتالي فالعولمة تعمل على تفكيك الهويات خصوصاً لما تكون العلاقة بين دول متقدمة ودول متخلفة لأنها علاقة غير متكافئة، حيث الأولى تتمتع بالقوة التي تعينها على السيطرة والسيادة، مما قد يخلق حالة من الإرباك داخل هوية تلك المجتمعات الضعيفة، وقد تمس بعض القيم.

وفي نفس هذا الاتجاه يرى الجابري أن الاختراق الثقافي يستهدف أول ما يستهدف السيطرة على الإدراك، واختطافه وتوجيهه. وبالتالي سلب الوعي، والهيمنة على الهوية الثقافية الفردية والجماعية، وبالسيطرة على الإدراك، يتم إخضاع النفوس أعني تعطيل فاعلية العقل وتكليف المنطق والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع: معارف إخبارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه "ثقافة الاختراق". (الجابري م، 1998).

إلا أننا لا يجب أن ننظر إلى الهوية نظرة قدسية تنتج الاستعلاء ورفض الآخر، أو النظر إليها باحتقار يولد الدونية. فالعولمة لا شك لها تأثير على الهوية إلا أن المحللون لهذه الظاهرة يختلفون حول هذا التأثير، فهناك المؤيدون الذين يرون أن العولمة عامل من

عوامل انتشار التكنولوجيا من الدول المتقدمة إلى باقي أنحاء العالم وبالتالي زيادة الإنتاج، وعليه فإن هذا يعفو للعولمة أي تأثير سلبي ينتج عنها اتجاه الهوية، بل وهناك من يرى أن الهوية ستستفيد من العولمة. كما أن هناك من يرى أن المعلومات التي توفرها العولمة مفيدة جداً وفي سبيل ذلك تهون الهوية.

أما الفريق المقابل فيرفض العولمة لأنها تضاعف من الاستغلال الاقتصادي، من خلال الاستثمار في الدول الأقل نمواً، وبالتالي يجب حماية الهوية من أجل التصدي لهذا الاستغلال، ولأجل ذلك يجب إثارة الحمية الوطنية والحماسة للثقافة الوطنية. ويرى فريق ثالث من الرافضين للعولمة أنها تهدد هوية أمة لهوية أمة أخرى. (أمين، 1998).

إذن يمكن القول إن العولمة ترفع من الإنتاج وذلك من وجهة نظر العالم كله، وتسهم في زيادة معارف الإنسان العلمية والفنية، إلا أنها في نفس الوقت سبيل لمزيد من الاستغلال الاقتصادي من جانب كبريات الشركات العالمية في الدول الأقل تقدماً، وتقدم فائدة للدول المتقدمة.

رابعاً: الصراع الهوياتي:

ويقودنا الحديث السابق إلى القول بأننا نعيش في عالم لا مكان فيه للإيديولوجيا، وإنما للمصالح فقط، وكل التحالفات تقوم على هذا الأساس. مما قد يولد مأزقاً هوياتياً يؤدي إلى صراعات وصدمات.

ومن ثم فالهوية كما سبق ذكره قضية محورية، لدرجة أن من لم ينتبه إليها يذوب في غيرها. فالمجتمعات التي تريد أن يستمر بقاؤها يجب أن تصون وتحمي هويتها، فمثلاً لما وجد الفرنسيون أن اتفاقية الجات ستؤدي إلى دخول المواد الثقافية الأمريكية بمعدلات كبيرة إلى فرنسا والتي ستشكل خطراً صارخاً لهويتهم، رفضوا التوقيع على الجزء الثقافي منها وطالبوا تخفيض تلك المعدلات.

ذلك لأن العالم في هذه الألفية يعيش تغيرات سريعة دولياً وإقليمياً ومحلياً، تغيرات نقلت المجتمعات من مجتمعات صناعية إلى مجتمعات المعرفة بل إلى مجتمعات المخاطر. وأحدثت هذه التغيرات أيضاً ثورة في الفكر بصفة عامة، لأن العلم أصبح المصدر الأساسي للإنتاج، ففي علم الاجتماع صدرت عدة كتب منها كتاب بعالم الاجتماع الأمريكي (دانيل بل) بعنوان "المجتمع ما بعد الصناعي"، وكتب في الثمانينات لعالم الاجتماع الألماني (أولريش بك) بعنوان "مجتمع المخاطر". كما أنه خضم ثورة الاتصالات الكبرى أصبح البشر في كل العالم لأول مرة قادرين على التواصل بسهولة، وبالتالي علينا أن نتخيل نتائج ذلك على حياة الإنسان مستقبلاً وعلى الهوية، لأن هذه التطورات تشكل تحديات لكل الهويات خصوصاً تلك الخارجة عن نطاق إنتاج المعرفة والتكنولوجيا والعلوم.

فتلك الهويات المتوقعة خلف الأسوار سوف تلهمها تلك التطورات لأنها لا تملك آليات التعايش مع هذا الجديد. فالعولمة بسطوتها التكنولوجية تلهم تلك الثقافات والاقتصادات المتخلفة، لأنها ستفرض عليها تغيرات وتعديلات في المجال التشريعي، وكذا على الرموز والصور، زيادة حرية التعبير والإعلام، زيادة تدفق الأفكار دون القدرة على التحكم فيها، مما قد يؤثر على القيم والقناعات بين الثقافات والمجتمعات وبالتالي الهويات خصوصاً مع تعاقب الأجيال.

وقد أصبح مؤكداً اليوم أن الحياة المعاصرة تتخبط في صراع أفكار وثقافات وهويات لدرجة تجاوز خط القبول أو الرفض لأنه أصبح واقعاً فعلياً، تدخل حتى في رسم الأهداف. وهذا يؤكد مسألة أن التأسيس لهوية ما هو إقصاء لهوية أخرى. فعلو شأن بعض الثقافات على حساب ثقافات أخرى قد يؤدي إلى تقزيم ثقافات العالم النامي وجعلها مجرد أشكال لفولكلور لا مكان لها في صنع التاريخ. وبهذا الشكل ستتضرر الدول النامية تحت وطأة الهيمنة الغربية، ويتزعزع استقرارها السياسي وأمنها الثقافي وتصبح سهلة الاختراق من طرف أفكار وإيديولوجيات تعارض حقيقتها الاجتماعية الثقافية، الحضارية وبالتالي الهويتية. وعليه تتأكد التبعية الشاملة (تكنولوجياً، ثقافياً، إعلامياً،

وبحثياً في المجال العلمي) فتتوغل داخل هويات المجتمعات أفكار قادمة من عالم أو مجتمعات مختلفة إيديولوجياً وعقدياً وتاريخياً، وهذا خطر داهم وعواقبه خطيرة.

وعليه يمكن القول، ليست العولمة بالضرورة مرادف للسلام، لأن صراعات الهوية زادت بشدة منذ تسعينات القرن الماضي وكذلك سباق التسليح. كما أنه لم تتخلص الإنترنت والأقمار الصناعية من الهويات، فلقد تعززت التكتلات العرقية والدينية والانفصالية وغيرها من الصراعات على الهوية، خصوصاً في الدول النامية حيث لا يريد أي أحد التنازل عن الأنانية القومية، على عكس المجتمعات الغربية حيث يتم تشجيع عملية الانصهار ومناهضة العنصرية. (Valle، 2014).

فالصراع الهوياتي يكون عادة بين أعضاء نفس الحضارة وبين شعوب تعيش في وضع جوار. لا يقتل المرء غربياً بل يقتل جاره (يوغوسلافيا، رواندا، العراق، السودان...). وكما عبر عن ذلك أمارتيا صن في كتابه "الهوية والعنف" لما تحدث عما أسماه بالمقاربة "الانعزالية"، إننا في حياتنا نرى أنفسنا أعضاء لعدد متنوع من الجماعات. ونحن ننتمي إلى هذه الجماعات ونمارس نشاطات كثيرة وكل هذه النشاطات تعطينا شخصية خاصة ومتميزة. وليس فيها ما يمكن أن يعتبر هو الهوية الوحيدة للشخص، أو فئة العضوية الانفرادية. (صن، 2008). بل هويات متعددة تنعكس من خلال تلك الانتماءات الكثيرة والمتنوعة. فقد يحدث الصراع عندما نعتقد بعمق في هوية نعتقد أنها فريدة، يمكن أن تثير مواجهات طائفية.

خامساً: الهوية وعصر الرقمنة:

نتحدث في العالم الرقمي عن الهوية الرقمية ومدى جدتها في إحداث التفاعل خصوصاً في الاقتصاد الرقمي. وبما أن ليس هناك شيء جوهري أكثر من الهوية لدى البشر على اعتبار أنها مزيج من التاريخ والمعتقدات والسلوكيات الفطرية والمكتسبة نهيك عن ارتباطها بالهيكليات الاقتصادية والاجتماعية.

وفي ضوء التغيرات التي يشهدها العالم وبروز الرقمنة كشريك في خلق العالم الافتراضي اتسع نطاق النسق الثقافي العالمي مما أثر في الهوية. وفي ضوء السياقات الثقافية المعاصرة وكونية العلاقات الاقتصادية المعاصرة وتطور نظم الاتصالات أخذت الأطر التقليدية والرسمية تضعف بسبب فقد آليات مسايرة هذا التطور.

ومعنى هذا أن كثيراً من الهويات سيتم بناءها وفق سياقات عالمية، تلك السياقات التي أعطتها التأثيرات الإعلامية والرقمية دلالات جديدة، بعيدة عن الفضاءات المحلية. ضمن فضاء رقمي واسع غير محدود سواء من الجانب الثقافي أو غيره. إلا أن التفاعل الذي يتم وفق هذا السياق يكون غامضاً بل وقد يكون وهمياً خصوصاً وأنه يتمتع بالحرية في التعبير والاختيار بين البدائل، ويشبع رغبات المستخدم في الانتقال بين الواقعي والافتراضي، فيعيش الفرد وجوداً مغايراً وممارسات ثقافية جديدة مما يخلق تشتت داخل المجتمع.

فظهور الهوية الافتراضية في ظل هذا السياق فتح مجالات واسعة لتداول الثقافات، مجال يحيط بالفرد من كل جانب، وهذا ما يجعله يتساءل حول الحفاظ على الثقافة الأصيلة وثقافة تحاول أن تعزله أو تسيطر عليه، وبالتالي سينعكس كل ذلك على الهوية، وهذا الأخير يؤثر على ممارسته لأدواره داخل المجتمع. فيعود الفرد ويلج إلى مجتمعه بمنظار جديد وقد يكون هذا المنظار مزيفاً.

ووفقاً لما سبق يمكن القول إن الإنترنت استطاعت أن تخلق إنساناً ينتهي إلى العولمة وجعلته جزءاً منها وذلك من خلال أصدقائه عبر العالم، والذي تربطه بهم علاقات متنوعة تحكمها أسس أخلاقية جديدة تمكنت من بلورة هوية رقمية فرضت على الفرد الاستفادة من ذلك الهامش من الحرية المتاحة له في ذلك المجتمع الافتراضي، مع تحمل مسؤولية أخلاقية في هذا العالم الرقمي، والتعبير عن المنظومة الثقافية الواقعية التي ينتهي إليها.

فالوجود أو التواجد ضمن هذا العالم الافتراضي ليس كمتفرج فقط وإنما كفاعل حتى ولو بالإعجاب.

فالفرد في هذه الحالة يعيش بهوية ثنائية، فالبنية الرقمية تساعد على تحقيق التأثير المرجو، وهو هوية افتراضية تسقط الحواجز، وقد تتوغل إلى خصوصيات الأفراد. فهذا وضع يشكل تحدي للفكر والثقافة، خصوصاً مع الوضع الذي تعيشه مجتمعاتنا حالياً. فبين الهوية والعالم الافتراضي يوجد إنسان معاصر لا بد أن يدرك الخطورة التي تحوم حوله، لأن اكتساب الهوية الافتراضية بالرغم من أنها مقارنة بالهوية الواقعية تشكل جزءاً صغيراً إلا أن ديناميتها تشكل تحدياً كبيراً للواقع ولذوات الأشخاص وثقافة وتاريخ المجتمعات.

الخلاصة:

إن الهوية هي صورة المجتمع وهي التي تعكس حقيقته، وبالتالي يتصرف الإنسان حسب مقتضياتها، وهي المرجعية للتفاعل الاجتماعي. وأن مسألة الهوية على المستوى العالمي مسألة صعبة وشائكة لدرجة تداخل مضامينها في مفاهيم ومجالات أخرى، كالسياسية والثقافية والأخلاقية. هذا بالإضافة إلى ميل الحدود بين الدول إلى الزوال، مما أدى إلى سيطرة ثقافات الدول الكبرى على ثقافات الدول الضعيفة، وهيمنة نمط الحياة الغربي على شعوب الدول النامية.

ومن جهة أخرى نلاحظ مقاومة من طرف الهويات في الدول النامية، وهذا ما حرك كثير من الأحداث السياسية. وهذا يعبر عن مدى قوة الهوية في تماسك البناء الاجتماعي للمجتمعات، لذلك تسعى العولمة إلى تهيمشها وعدم إشراكها في صنع الأحداث أو عدم أخذها في الاعتبار. إلا أن رسوخ الهوية لدى الشعوب شكل نقطة قوة لدى الدول الضعيفة، بحيث أصبح من الصعب محوها أو تجاوزها.

وعلى هذا الأساس يجب على الهويات أمام تلك التحديات ألا تخرج أو تتأخر عن مجال إنتاج المعرفة وعدم التوقع خلف الأسوار كي لا يهتمها التطور الحديث. لأن الصراع الهوياتي الحادث أمر حتمي في ظل التغيرات السريعة التي يشهدها العالم وفي ظل تمسك الشعوب بعرقيتهم ودياناتهم، وتعاضم الأنانية القومية، ومحاولة كل جهة فرض هويتها خصوصاً مع بروز الرقمنة على الساحة العالمية، والتي تعمل على اتساع النسق الثقافي العلمي وبناء تلك الهوية في سياقات عالمية، ذلك لأن الإنسان جزء من العالم بما يحمله من خصوصيات ثقافية تعبر عن هويته.

الإحالات والهوامش:

- Alexandre del Valle .(2014, 5). La mondialisation en question de l'occident. *Géoeconomie*. الصفحات 29-72.48-29 n°
- C. Lévi-Strauss .(1977). *L'identité*. Paris: Grasset. p.332.
- الحوسيني، ابراهيم راشد. (2001). *أثر التحديث الغربي في الهوية في المجتمع الاسلامي*. الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام. ص.32.
- الطيب التيزيني. (2001). *الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة.. ندوة حوارات في الفكر. الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة، مواجهة وتدقيق ناصف ناصر* (الصفحات 17-42). عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان. العدد 3. ص. 21.
- أمارتيا صن. (2008). *الهوية والعنف (وهو المصير الحتمي) ترجمة سحر توفيق*. الكويت: عالم المعرفة. ص.ص. 8-9.
- تركي صقر. (1998). *الإعلام العربي وتحديات العولمة*. دمشق: وزارة الثقافة. ص. 178.
- تيلور، بيتر وكولن فلنت. (2002). *الجغرافية السياسية لعالمنا المعاصر ج.2*. ترجمة، عبد السلام رضوان، واسحق عبيد. الكويت: سلسلة عالم المعرفة العدد 283. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- جلال أمين. (1998). *العولمة - القاهرة: دار المعارف*. سلسلة إقرأ. ص.46.
- زغو. محمد. (نيسان، 2010). *أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب*. الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 4، *جامعة الشلف*، صفحة 94. تم الاسترداد من <http://www.univ-chelef.dz/ratsh/article-revue-academique-n-4-2010>
- فرنسيس هرنانديز وفرانسيس ميركاد. ترجمة. محمد تتيل. (2008). *الهوية ودورة الحياة: محاصرة الهوية*. مجلة رؤى تربوية، فصلية الثقافية تصدر عن برنامج البحث والتطوير التربوي، مؤسسة عبد المحسن القحطان، رام الله. فلسطين. العدد 27، ص. 65-67.

- م. عمار. (1999). *مخاطر العولمة على الهوية الثقافية*. القاهرة: دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع. ص.6.
- محمد الجابري. (1998). *العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات*. تأليف *العرب والعولمة* (صفحة 301). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد عابد الجابري. (1999). *العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي- تعريفات...ومقارنات*. مجلة *فكر ونقد*. العدد 21. سبتمبر.
- نبيل علي. (2005). *استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعريف بالهوية العربية وإثرائها والتحدي الإسرائيلي للمعلوماتي*. *المجلة العربية للثقافة* العدد 46، 78.